١ – مع زاهية قدورة

بقلم: الأستاذة الدكتورة نشأت الخطيب
استاذة التاريخ الاسلامي في الجامعة اللبنانية
وفي جامعة بيروت العربية
rimahkhatib@gmail.com

قد يستغرب القاريء كتابتي الآن عن الدكتورة زاهية قدورة، اول عميدة لكلية الآداب في الجامعة اللبنانية، بعد رحيلها سنة ٢٠٠٢, وكتابتي هذا المقال عن زاهية قدورة في هذا الظرف لها دلالات حفرت عميقاً في ذاكرتنا وفي وجداننا، نفتقدها اليوم، نفتقد حماسها ووطنيتها وعروبتها المشعة دوماً وفي كل وقت.

ففي سنة ١٩٦٧ تخرجت من كلية الحقوق في الجامعة العربية بعد النكسة وقرأت في احد الصحق ان الدكتورة زاهية قدورة والتي لم أكن اعرفها قبلاً تدعو جميع العروبيين الى مشاركتها في حملة جمع التبرعات للمجهود الحربي العربي في مصر بعد النكسة، فذهبت الى الاجتماع الذي عقد في بيتها وشاهدت حماسة النساء اللبنانيات العربيات في التبرع بالذهب والمال، وطارت الى مصر لتسلم الرئيس جمال عبد الناصر كل هذه التبرعات، وتكلمت معها واخبرتها انني احب التاريخ ودراستي للحقوق لن تمنعني من التسجيل في الجامعة اللبنانية لدرس التاريخ، وهكذا تعرفت عليها في الجامعة اللبنانية، استاذة محاضرة، ومناضلة في سبيل تعريب المناهج في الجامعة اللبنانية، احببتها لأنها جسدت لي كل ما أحلم به من نضال من اجل العلم والعروبة والترقي في مجتمعاتنا، وكانت قد أنشأت اتحاد الجامعيات اللبنانيات ودعتني لحماستي للإنضمام الى هذا الاتحاد، واستلمت فيه اللجنة الثقافية، وكان لهذا الاتحاد باع طويل في بث الثقافة والنضال من اجل الوحدة ومن اجل قضية فلسطين التي كانت شغلها الشاغل، وهي لذلك عمدت الى الاتصال بمروحة كبيرة من الدول العربية للتنسيق فيما بينها لدعم قضية فلسطين.
فكانت الداعية والمشاركة في المؤتمرات التي عقدت في كل من مصر وسوريا والاردن وتونس وغيرها من الدول العربية وكلها تهدف الى جمع شمل العرب لتحقيق النصر المرجو للأمة العربية.

كانت بكل تصرفاتها تشكل رسالة مشرقة في الجامعة وفي الحقل العام فجسدت دوماً العروبة المتوهجة والمنيرة التي ارادتها مشروع نهضوي تقدمي، فهي الانسانة العادلة، التي كانت تسعى دوماً لإنصاف كل موظف مظلوم في الجامعة، ولم تتأخر يوماً عن مبادرات لخدمة الانسانية في مجتمعها، فكانت رحلتي معها ممتعة تزيدني علماً وخبرة وحماسة موجهة عن طريق العلم والكلمة، فكانت حياتها كلها نضالاً وثقافة وفكر لم يؤخرها مركزها الاكاديمي الذي استطاعت من خلاله ان تحدث في الجامعة اللبنانية نقلة نوعية نحو التقدم والحداثة التي كانت تنشده الى جانب المحافظة على تاريخ امتنا الحضاري.

وحرصت الدكتورة زاهية على ممارسة قناعاتها في طلابها فدربتنا على مواجهة المشاكل والصعاب، خاصة في فترة شغلها لعمادة كلية الآداب في وقت كانت فيه البلاد والجامعة تواجهان بداية الحرب الأهلية عام ١٩٧٥.

زاهية قدورة التي تلقت دراستها الجامعية في بيروت لم تكتف بالمسار الاكاديمي فقط بل جعلت شغلها الشاغل احداث تنوير على مستوى التاريخ الحديث لا عبر دروسها ومؤلفاتها فقط، فهي التي نالت شهادة الدكتوراه في التاريخ من جامعة القاهرة كانت مسكونة بالعروبة وظلت حتى آخر يوم في حياتها أمينة لخط ومشروع النهوض القومي. فعندما ارادت التسجيل في الماجستير في التاريخ في الجامعة اللبنانية بعد ان حازت على الليسانس في التاريخ اقترحت علي وعلى زميلاتي المتخرجات، ان نقوم بدراسة تاريخ تطور الحركة النسائية في الوطن العربي. فقالت يجب ان تأخذ كل واحدة منكن دراسة تاريخ الحركة النسائية في بلد عربي، وفي النهاية نصدر كتاباً باسم اتحاد الجامعيات اللبنانيات بعنوان تاريخ تطور الحركة النسائية في الوطن العربي. فأعددت انا رسالة الماجستير، تحت عنوان "تاريخ تطور الحركة النسائية في مصر" وهي التي طلبت مني ان اكتب عن مصر بما انني درست الماجستير في الحقوق في مصر وكانت استاذتي الدكتورة عائشة راتب، وطلبت من حنيفة الخطيب ان تأخذ موضوع "تاريخ تطور الحركة النسائية في لبنان"، ومن آمنة ابو زينب "تاريخ تطور الحركة النسائية في العراق"، ومن آمنة صلاح "تاريخ تطور الحركة النسائية في فلسطين". انا والدكتورة حنيفة اتممنا رسائلنا ونلنا درجة الماجستير عليها، لكن احداث لبنان لم تساعد الزميلات الباقيات على اتمام الرسالة المرجوة. ولم يتحقق حلم الدكتورة زاهية في اصدار هذا الكتاب عن دور المرأة في الوطن العربي بأكمله.

فالدكتورة زاهية قدورة، الى جانب دورها الفكري والثقافي والنضالي من اجل الموقف الشريف الصحيح، ومن اجل حرية المجتمع والفكر والانسان، والى جانت مهماتها في الجامعة قسم التاريخ منذ سنة ١٩٥١ كأستاذة مساعدة سنة ١٩٥٢ بالاضافة الى التدريس في جامعة بيروت العربية سنة ١٩٦٢ كانت قد انتخبت رئيسة لقسم التاريخ في الجامعة اللبنانية عام ١٩٦١ وتبوأت مركز العمادة في كلية الآدارت (١٩٧١-١٩٧٧) وعلى عهدها كثفت البعثات للتخصص في باريس ولندن للطلاب المتفوقين حيث كنت في عداد من ارسل الى باريس لتحضير شهادة الدكتوراه في السوربون، وكان هدفها اعداد هيئة تدريس متطورة تعرف كل مناهج المعرفة الحديثة التي تقود المجتمع الى التقدم والى النهضة الفكرية والاجتماعية، الى جانب تاسيسها لاتحاد الجامعيات اللبنانيات عام ١٩٥٢، دخلت مجلس الأمناء لمجلة القدس والجهاد والموقف، وايضاً دخلت في الاتحاد النسائي اللبناني والاتحاد النسائي الفلسطيني الذي كانت ترأسه شقيقتها وديعة قدورة خرطبيل. كما اصبحت مستشارة لشؤون دار الفتوى ولمجلة الفكر الاسلامي، وهي من المؤسسين للمنتدى القومي العربي الذي اتخذ من دار الندوة مقراً له الى جانب المناضل معن بشور والمناضل بشارة مرهج والراحل المؤسس ايضاً منح الصلح. وطلبت مني الانضمان الى المنتدى القومي العربي الذي ما زال سائراً على النهج نفسه الذي نشأ من اجله وهو شرح العروبة الحضارية التي لو آمنا بها وعملنا على فكرة الوحدة والتضامن المرجوه لكنا نشلنا انفسنا من المستنقع الذي هوت اليه امتنا العربية.

وكان له باع طويل كعضوه في المؤتمر القومي الاسلامي ، والهيئة الوطنية لمقاومة التطبيع، وعملت بكل اخلاص في كل تجمع هدفه العروبة، وتقدمها نحو الحضارة فانضمت الى اتحاد قوى الشعب العامل والمجتمع الثقافي العربي، واتحاد المؤرخين العرب، ففي كل سيرة وحدوية كان لها دور فاعل ومؤثر وكانها كانت الحارس للوحدة العربية، هذه الوحدة التي ذهبت في لبنان مع ذهاب حارستها زاهية قدورة عام ٢٠٠٢. ففي كل هذه الادوار الاجتماعية والثقافية لم يفتر النشاط الفكري الحضاري عند الدكتورة قدورة. ففي رسالتها للماجستير قدمت موضوع عائشة ام المؤمنين، وكتاب الشعوبية واثرها السياسي والاجتماعي في العصر العباسي الأول عام ١٩٧٢، وكتاب تاريخ العرب الحديث عام ١٩٧٥، وكتاب بحوث عربية واسلامية عام ١٩٨٤ وكتاب شبه الجزيرة العربية عام ١٩٨٧ وكتاب رحلة العمر ١٩٩٩ وكتاب بحوث في العروبة والاسلام عام ٢٠٠٠.

والمطلع والمعايش لزاهية قدورة والراصد لحركتها في الميدان النضالي والفكري والاكاديمي في فترة زمنية تشابكت فيها تطلعات الشعوب والروافد الثقافية الآتية من الشرق والغرب والمؤتمرات الصهيونية على امتنا جمعاء بكل اقطارها، الى جانب التيارات الفكرية التي شغلت ساحات العالم العربي اقليمياً ودولياً منذ زرع الكيان الصهيوني في قلب العالم العربي عام ١٩٤٨ الى عهد الستينات والسبعينات والتحرر وعبد الناصر ورسالته الى الأمة بالعمل على قيام وحدة عربية تحمي ولا تهدد تصون ولا تبرد، تشد ازر الصديق وترد كيد العدو، هذا ما قاله جمال عبد الناصر وهذا ما تبنته زاهية قدورة في رحلتها الاكاديمية والاجتماعية والثقافية، وهذا ما علمتنا اياه، وقد شاهدت لديها صورة وهي ما زالت طالبة في الجامعة تلبس ثوباً في حفلة يمثل العلم العربي الذي يمثل الامة جمعاء. هكذا كانت زاهية قدورة طيلة مسيرتها في هذه الدنيا وفيه لعروبتها ولإسلامها ولقوميتها، محاربة للظلم والفساد، فكانت حياتها نجمة مضيئة في عصرها ديناميكية في حركتها، شكلت صورة للمرأة النموذجية لما يتطلبه عصرنا من المرأة العربية المناضلة التي لا تستكين عن العمل حتى تحقيق حلمها في امة عربية واحدة رسالتها حضارية ترفض التحجر وتعمل على السير بخطة جريئة نحو اصلاح الصورة عن تاريخنا وحاضرنا الذي شوهته الصهيونية والاسلام الجهادي بصورة ملتزمة بالمباديء وفيه لها تحت كل الظروف الضاغطة تعمل على تحقيقها وكأنها رسالة سماوية يجب ان لا نخرج عن مبادئها. والعمل على ان تحتل امتنا كما في تاريخها موقعها العلمي في حلبة الامم (اللواء ٢٠٠٢/١٠/١١/ نعي زاهية قدورة).

وكانت تلقي علينا دوماً ما تريدنا ان نقوم به تجاه امتنا خاصة فيما يجب ان نقوم به للرد على المستشرقين الذين عملوا على تشويه الصور الحضارية لآمتنا من خلال مسيرتها التاريخية، وتقول لا بد من اعادة كتابة التاريخ الاسلامي لتنقيته من سموم المفكرين ولإبراز الشخصية العربية والاسلامية المؤمنة بالقيم الحضارية . متمسكة بأصالة حضارتنا تجاه موجات التعريب وذبول الحضارة العربية حديثاً في انكسارات ونكبات متتالية، وفي معرض ردها على هذا المنحى واجهت في الدفاع عن قيمها ومبادئها في العروبة والتحديات المستمرة لثوابتها الايمانية فكانت تعلمنا ان الدين الاسلامي احتضن العروبة لقرون طويلة ولكن سياسة التتريك دفعت العرب للبحث عن هوية العروبة التي سقطت بسبب الانتداب الاجنبي، ولم يكن حماسها لعبد الناصر ومبادئه الا لكون العروبة التي تؤمن بها عادت لتتألق في الناصرية.

وهنا نرى دورة الزمن التي اتت الى السلطة بمجموعة من الحكام العرب الذين يحكمون باسم العروبة، وهم يعملون لمصلحة اسرائيل على اضعاف العروبة. فنحن اليوم في ردة عن العروبة نحو الاسلام المشكوك فيه دينياً لأنه يكاد يقضي على الاسلام والعروبة.

وهنا تكمن المشكلة في غياب زاهية قدورة التي نحن بأمس الحاجة لوجودها ووجود أمثالها نحن الجيل الذي تربى قومياً على يديها ودرستنا تاريخنا كما يجب، نشعر اليوم ببعض اليتم، ويوم توفيت على يدي في مساء سهرة كنت قد اتيت لعندها لأصطحبها الى دعوة للعشاء عند الدكتور عصام خليفة برفقة شقيقتي الدكتوره فدوى، وبعد ان رحبت بوصولنا قالت انها تعبة قليلاً فقلت لها ارتاحي لدينا ايضاً بعض الوقت ولكن دخلت في غيبوبة بين يدي فاستدعيت طواريء الجامعة وجاءت سيارة الاسعاف وحملها المسعفون وما زال قلبها الكبير ينبض، وابت شقيقتي فدوى الا ان صعدت الى الاسعاف لتكون معها للوصول الى الجامعة الاميركية وذهبت انا بسيارتي، وبعد وصولنا ودخولها الطواريء، خرج الدكتور ليقول من أهلها قلنا نحن بناتها، كما كانت تقول دوماً فأعطانا ساعتها وخاتماً وقال البقية بحياتكم. فقد لفظت انفاسها الاخيرة بين ايدي من تحب ومن آمن بها استاذة ومناضلة، ويومها كتبت بعد الجنازة في جريدة اللواء في ٢٠٠٢/١٠/١١، وداعاً يا معلمة الجيل، يا من تركت لنا نهجاً اكاديمياً في الجامعة اللبنانية سمي بنهج زاهية قدورة. نهج المحافظة على الروح الجامعية والاكاديمية، نهج نصرة المظلوم على

الظالم ومناصرة الحق، نهج الإلتزام بالموقف الحضاري العربي، كنت لنا شمساً مشرقة لن تغيب بغيابك فالأفكار لا تموت بل تزدهر مع كل جيل، لأن الحق لا بد ان ينتصر. لقد علمتنا معنى العروبة الحضارية التي تبني ولا تهدم التي تعترف بالتمايز وفهم الآخر. كنت دوماً المتمسكة بالمباديء، علمتنا قول الحق في وجه الجائر، عمادتك في الجامعة اللبنانية كانت سنوات الازدهار لها بحيث قدمت مسيرة التعريب في مواد الجامعة اللبنانية. الى جانب انشاء مركز للغات الاجنبية الفرنسية والانكليزية ونعاهدك ان نكمل الدرب في زرع القيم الحضارية والاخلاقية في الاجيال العربية حتى يتحقق ما نرجوه من نصر لأمتنا في المستقبل.